قضى ابن (بابل) والربّان الليل بطوله واقفيْن إلى سياج السفينة وهما يتحدّثان، وسواء كان الحديث عن قصص البحر أو عن مواعظ الأدباء، فقد كان كل منهما يصغي إلى كلام الآخر من غير كلال. وكانا كلاهما يوزّعان على الركاب المتّجهين نحوهما كلمات التشجيع نفسها. لأن الناس كانوا لا يزالون يتململون على ظهر السفينة مذعورين، بيد أن تباشير الصباح حملت معها العزاء إذ كان الإعصار قد غاب بعيداً ولم يترك أثراً ولا أضراراً. وارتفع في نهاية الأمر السكون الأزرق المعروف في بحار الجنوب فوق تلألؤ الأمواج التي بدا لبعض الوقت أنها قد ندمت على ما بدر منها.

أخذ القوم يتنفّسون وانفكّ عِقال الألسنة وأصبح بالإمكان طرح الأسئلة التي كانت ستبدو البارحةَ غير محتشمة ومن قبيل سوء الطالع. وأفاد صانع السفن الصُّورِيّ بشأن عِقد الذهب الذي كان حول عنقه:

ـ حين أكون في البحر والموت يهدِّد أتساءل على الدوام بفزع عن مصير جسدي إذا أصابني الغرق. لا شكّ في أنه سينقذف إلى الشاطىء حيث يكتشفه أحدهم ويتردّد بشأن مآله؛ فإذا وجد كل هذا الذهب قدّر أنه قد كوفىء بسخاء وقدَّم لرفاتي، عرفاناً منه بالجميل، القبرَ اللائق.

وكان هناك أيضاً ذلك البحّار الشاب الذي بدا عازماً على قتل نفسه. وكان عربياً. وقد قال إنه إذا لم يكن بدّ من حدوث الموت فهو يفضّل أن تُخلى روحه للهواء الطَّلْق وترحل إلى السموات العلى بدلاً من أن تبتلعها الأمواج وتبقى أسيرة الأرواح الشريرة المتحكِّمة بالأعماق.

أصبح من حقّ «ماني» مذّاك أن يسترعي جميع الأنظار. فإذ غدا موضع مزيد من الإجلال عمّا كان عليه في المدن التي اجتازها، يحيط به القوم على الدوام ويتبعونه ويصغون إليه، فقد كان يُدعى لمشاركة الربّان جميع وجبات طعامه وكل سهراته، ويحظى رفيقاه بالامتياز نفسه. وظلّت المؤن التي كدّسها «مالكوس» كما هي تقريباً حتى نهاية الرحلة.